القبائل وأعيان العاصمة الدينية للبلاد، وخلال خطبة الإعلان عن الثورة في مسجد عقبة عمل الشيخ على تحريض قادة وأعيان الشعب التونسي على الجهاد، مذكرا بواجب المسلم نحو دينه وأرضه، وداعيًا إلى الثبات على الصفوف والمحافظة على علو النفس والهمة.
وقد تلا اجتماع القيروان خطوات أخرى سياسية ودبلوماسية؛ حيث أرسل الشيخ علي مبعوثين إلى والي طرابلس؛ لاستطلاع موقفه، وتبليغه رغبة الثورة في الدعم بالمال والسلاح، ولما تأخر رد الوالي بادر بتسليح كل من يقدر على حمل السلاح من أبناء قبيلته نفات، وإعدادهم لخوض غمار الحرب.

حرب العصابات لمواجهة الفرنسيين

مرَّ الشيخ بمدينة صفاقس يوم ١٥ يونيو ١٨٨١، وهو في طريقه إلى القيروان لعقد اجتماع مع اثنين من شيوخها، هما محمد كمون ومحمد الشريف، لأقناعهم بعدم الاستجابة لدعوات الباي في تسليم المدينة للفرنسيين.
وفي ٢٥ يونيو ١٨٨١ اعترض الشيخ طريق فيلق عسكري من الحامية التونسية، قام بإبادته بعد معركة قصيرة بأرض المهاذبة جنوب صفاقس، وهو في طريقه إلى مقر قيادته في دار الفريك في قابس.
واستطاع الشيخ علي إثر هذه المعركة توسيع قواته لتشمل فرسانًا من قبائل أخرى، وفي ٢ يوليو ١٨٨١ تحرك الشيخ علي بجيش متواضع التجهيز؛ لنجدة مدينة صفاقس الثائرة، حيث أمسى قادة مقاومتها يعترفون بإمارته لشعورهم بسيطرته المطلقة على القبائل البدوية.
وعلى الرغم من عدم تكافؤ القوى فقد تمكن الشيخ علي بن خليفة من قيادة معارك باسلة، أظهر خلالها قدرات عسكرية فائقة وبطولات حيرت الضباط الفرنسيين الذين كانوا يقودون الحملة؛ مما حدا بالمؤرخ الفرنسي مارتال الذي يذكر في كتابه (حدود تونس الصحراوية الطرابلسية): إن فرسان الشيخ علي الأبطال قد وقفوا سدًّا منيعًا أمام الجيش الفرنسي بمدافعه وتجهيزه الحربي الكبير؛ حيث اضطروه إلى القبوع في مواقعه، والاحتماء بسفنه ١٥ يومًا، ولولا وصول المدد ونفاد الذخيرة عن المجاهدين -يقول المؤرخ- لكانت أحواز صفاقس مقبرة للفرنسيين، ولانقلبت الآية لصالح الثورة في المعركة التي انتهت يوم ١٧ يوليو ١٨٨١.
بعد خسارته معركة صفاقس اضطر الشيخ علي -الذي أصيبت رجله في الحرب، فأكمل حياته أعرج؛ حيث كان يشارك في القتال بنفسه- إلى التوجه لمنطقة ودران جنوب المدينة؛ حيث بادر من هناك إلى تجديد اتصالاته ببقية جبهات المقاومة، كما قام بإرسال حملة تكونت من خمسمائة فارس وألفين من المشاة، ألحقت خسائر كبيرة بممتلكات الباي في العاصمة، وعادت بألف رأس من الإبل دون أن تتمكن القوات الفرنسية من تتبعها.
وقد خاض الشيخ علي بن خليفة معركة أخرى دامية من أجل فك الحصار المضروب على مدينة قابس، التي قامت القوات الفرنسية بعملية إنزال كبير في مينائها، واستمرت في قصف المدينة من البحر بالمدفعية لأيام طويلة، وقاد ذلك إلى سقوط ما يزيد عن ٥٠ شهيدا يوم ٣١ يوليو ١٨٨١؛ دفاعًا عن مقر الشيخ المعروف بدار الفريك، الذي جرى تدميره بالكامل.
رغم مرارة الهزيمة في صفاقس وقابس لم ييئس الشيخ علي بن خليفة، وأصر على أن تواصل الثورة غليانها، بالاعتماد على ثبات المجاهدين وقدراتهم الذاتية.. ففي منتصف أكتوبر ١٨٨١ تقدم الشيخ الثائر بقواته شمالا إلى أن وصل القيروان. لكنه اضطر في منتصف شهر نوفمبر ١٨٨١ إلى الزحف نحو بلدة وذرف الجنوبية، ليتخذها مقرًّا جديدًا لقيادته العسكرية، ويقود من خلالها آخر معارك الدفاع عن قابس وضواحيها، وذلك قبل سقوطها بشكل نهائي في أيدي القوات الفرنسية.
وفي ٢٠ نوفمبر ١٨٨١ انسحب الشيخ بكثير من المرارة والأسى نحو أقصى الجنوب، وحل بوادي الزاس، حيث التحق به إخوته ومن معهم من الأتباع بعد ٣ أيام. وقد ظل هناك ينتظر قدوم مدد من فرسان القبائل، آملا أن يكون منهم نواة للهجوم على قابس، وزاد من لوعته استسلام محمد بن شرف والمقاومين في قابس، فانسحب بصمت نحو ليبيا.

الثورة من وراء الحدود

خمدت المقاومة المسلحة في تونس بعد نزوح زعيمها الشيخ علي بن خليفة إلى الأراضي الليبية المجاورة مع ٣٠ ألفا من أتباعه، و١٤٠ ألفا من المهاجرين من أتباع بقية زعماء المقاومة، غير أن هذا الخمود لم يمنعه من مواصلة الحلم.
فعلى الصعيد الحربي واصل الشيخ من المهجر إعداد حملات الإغارة على المواقع الفرنسية في عمق التراب التونسي؛ وذلك بهدف الحفاظ على الشعور العام لدى شعبه بأن جذوة الثورة لم تمُت، وإشعار الفرنسيين أيضا بأنهم لن يهنئوا بطيب المقام في تونس.
أما على الصعيد السياسي فقد واظب الشيخ على الاجتماع بباشا طرابلس (الوالي العثماني فيها)، كما كان يبعث برسله إلى الأستانة عاصمة الخلافة، مطالبًا بإمداده بالإغاثة لمعاودة الجهاد ضد فرنسا. وكان ابن أخيه محمد بن صالح أهم سفرائه إلى تركيا؛ حيث قام سنة ١٨٨٢ بالاتصال بالوزير خير الدين باشا التونسي للوقوف على موقفه من الثورة، غير أن هذا الأخير قابله بكثير من البرود؛ مما أثر سلبا في نفسية الشيخ الثائر.
كما واجه الشيخ كل أساليب الحرب النفسية، ومنها مساعي رسل الباي مع المهاجرين؛ لإغرائهم وتشجيعهم على العودة لتونس، حرصًا من الشيخ على المحافظة على رصيد بشري يمكن للثورة أن تستأنف به عملها متى ما تيسر لها الدعم المادي.
ومن ذلك تصديه بالرد للخبر الذي نشرته جريدة الجوائب الصادرة بالأستانة، والذي حاولت الاستخبارات الفرنسية الترويج له، ويفيد باستسلام المجاهدين، فرد الشيخ يقول: طالعت في العدد ١٠٧٧ من جريدتكم خبرًا أثار عجبي؛ إذ لا بد أنه صادر عن بعض المفسدين؛ فقد نسبوا إلينا أننا سلمنا أنفسنا للفرنسيين. والواقع أنه لا أصل لذلك أبدًا؛ فنحن لن نتوقف عن الجهاد من أجل وطننا وديننا وشرفنا العربي الموروث، بكل إرادة وحزم.. نحن لا نعترف إلا بدولة واحدة (دولة الخلافة)، وقد تركنا أرزاقنا وعائلاتنا وبلادنا، ويظهر أنكم لم تطلعوا على أعمالنا؛ فإياكم أن تصدقوا ما تروجه الصحف من أخبار▯ التوقيع: الكولونيل علي بن خليفة.

رحيله قصم ظهر الثورة

رغم مساعي الشيخ المتعددة لإنهاض حالة الثورة؛ فإن وضعه وأتباعه في المهجر قد زاد سوءًا مع مرّ الأيام؛ وذلك لقلة الموارد الطرابلسية، وإهمال السلطات العثمانية في النجدة من جهة أخرى.
وقد اجتمع كل ذلك في نفس الشيخ، وخاصة إحساسه بالعجز عن رد الفعل إزاء تقدم الفرنسيين وامتهان كرامة التوانسة، وصعدت روحه إلى بارئها.
لقد أبى العجوز المتمرد أن يعيش يومًا واحدًا تحت سلطان الكفر، ومات وهو يمتطي صهوة جواده، حالما بالعودة، وهو الحلم ذاته الذي داعب خيال الكثير من المجاهدين التونسيين، حتى غادر الفرنسيون تونس غير مأسوف عليهم.

هوامش ومصادر:
١- صراع مع الحماية: محمد المرزوقي - الدار التونسية للنشر والتوزيع.
٢- حدود تونس الصحراوية الطرابلسية: شارل مارتال - دار غاليمار.